

الاساءة للأطفال وعواقبها

تأليف

راتشيل كلام

وكريستينا فرانشي

عرض

د. ممدوحة محمد سلامة

استاذ مساعد علم النفس
اداب الزقازيق

اثارته ومناقشته لبعض القضايا الحيوية المتعلقة بحقوق الطفل .

ويبدأ الكتاب بعرض تبرز فيه مؤلفاته كيف أن الاهتمام بمشكلة الاساءة للأطفال، واعتبار ذلك مشكلة هو أمر حديث نسبيا أما القسوة معهم وسوء معاملتهم فلها تاريخ طويل ، ففي العصور القديمة كان الأطفال يقدمون كقرايين ، كما كان غير المرغوب فيهم من قبل ذويهم — وبصفة خاصة البنات — يتم تركهم في العراء على سفوح الجبال حتى الموت — كذلك ففي العصور الحديثة — عصور الثورة الصناعية — كان الأطفال يعملون لساعات طويلة في المصانع ، وفي تنظيف المداخل وفي مناجم الفحم وقد كان للجروح والاصابات التي قاسى منها هؤلاء الأطفال ، وأعدادهم الهائلة التي تجوب الطرقات الفضل في نشأة ودفع

يدور هذا الكتاب حول موضوع حيوى حديث التناول نسبيا منذ أن تصدى له كيمب وكيمب (Kempe & Kempe, 1978) في نهاية السبعينيات وكتبه اثنتين من علماء النفس عن خبرة مباشرة للعمل في مراكز خدمة الأسرة مع أطفال سبق أن تعرضوا للاساءة من قبل ذويهم. والكتاب يتناول عدة جوانب نظرية تتعلق بتعريف مشكلة الاساءة للأطفال، وكيفية التعرف عليها، كما يبرز من واقع نتائج دواصة تتبعية، وأخرى تمت باستخدام منهج الملاحظة، الضرر النفسى الذى يلحق بهؤلاء الأطفال نتيجة تعرضهم لقسوة المعاملة من القائمين برعايتهم . ولعل أهمية الكتاب تقع في تعرضه بشكل مفصل لمنهج الدراسة ، وتركيزه على ما يبدى هؤلاء الأطفال من سلوك وابراره لاستراتيجيات الضبط والعقاب التى يتبعها أمهات مثل هؤلاء الأطفال وكذلك مدى تعبيرهن عن المحبة والقبول تجاه أطفالهن . وهو على هذا النحو يثير اهتمام كل من الباحثين والقائمين بتقديم أشكال العون والخدمات النفسية للأطفال بشتى مستوياتهم بالإضافة إلى

* Calam, R. & Franchi, C., Child abuse and its consequences observational approaches. Cambridge: Cambridge University Press, 1987

حركة الإصلاح الاجتماعى فى القرن التاسع عشر . ولعل سوء معاملة وسوء استخدام هؤلاء الأطفال يعكس لنا مدى تدهور قيمة حياة الطفل وسعاده فى عصور ليست ببعيدة عن عصرنا الحالى .

وتذكر صاحبتنا الكتاب عن كيمب (Kempe, 1979) أن تركيز الاهتمام على مشكلة اساءة الوالدين لأطفالهم لم يبدأ الا حين تحسنت الظروف الاجتماعية فى بعض المجتمعات بحيث استطاعت التحكم فى انتشار أمراض الأطفال وفى سوء التغذية وبحيث انخفض معدل وفيات الأطفال .

والطريف فى الأمر أن الجمعية الملكية للرفق بالأطفال فى بريطانيا قد تم انشاؤها فى نهاية القرن الماضى عقب انشاء جمعية الرفق بالحيوان وعلى غرارها ، وقد كان لانشاء هذه الجمعية الفضل فى بداية الدراسة المنظمة لهذه المشكلة كما صدر فى اعقاب انشاء هذه الجمعية قانون منع القسوة على الأطفال ضمانا لحماية الأطفال الذين يعانون من الاساءة من قبل ذويهم الأمر الذى وضع نهاية لعرف غير مكتوب يعطى حقا مطلقا للوالدين — أو من يقوم مقامهما — فى معاملة أطفالهم كما يشاؤون ، كما جعل للدولة حق ومسئولية رعاية هؤلاء الأطفال وأسرههم — وقد تدخل الطب فى هذه المشكلة حين وصف أحد أطباء الأشعة فى الأربعينيات من هذا القرن زملة أعراض يعانى منها بعض الأطفال تتمثل فى كسور بعظام اليدين أو الرجلين ، أو نزيف فى الأغشية المبطنه للمخ وهو ما أطلق عليه فيما بعد بزملة أعراض التعرض للضرب المبرح لدى الأطفال Battered child syndrome

وقد مر التعرف على مشكلة الاساءة للأطفال خلال ثلاثة مراحل أساسية تبرز من خلال تتبع تاريخ القسوة تجاه الأطفال حيث كانت هناك مرحلة طريفة من انكار المشكلة تلتها مرحلة أخرى ركزت على وصف أهم أعراضها كحدوث ضرر أو إصابة جسيمة ، ثم التوسع فى التركيز على الأضرار الخافية والجوانب المتعددة لهذه المشكلة . وقد كان تأثير النموذج الطبى واضحا بصفة خاصة فى بداية التوسع الحديث فى الاهتمام بهذه المشكلة حيث تم التركيز على

دراسة خصائص الوالد — أو الوالدة — الذى يسبب معاملة أطفاله وكانت الفرضية الأساسية هو أن مثل هؤلاء الآباء أو الأمهات لابد وأنهم يعانون من اضطرابات نفسية يمكن الكشف عنها عن طريق دراستهم ومن ثم يمكن مساعدتهم وإحداث التغيير فيهم عن طريق العلاج . ومن هنا أيضا كان تعريف الاساءة للأطفال على أنها « أحداث بين جروح أو إصابات غير عفوية بالطفل nonaccidental injury غير أن التأثير المتزايد لأعمال بولبى Bowlby أظهر أمام الدارسين لهذه المشكلة جوانب أخرى هامة أغفلها التعريف الطبى المحدود . فقد أكد بولبى (Bowlby, 1953) على أن الرابطة الوجدانية والتعلق بين الطفل والأم أمر ضرورى للصحة النفسية، وأن اضطراب هذه الرابطة من الأرجح أن يترتب عليه عواقب نفسية وخيمة . وقد أدى التركيز على مفهوم الاضطراب النفس لدى الآباء والأمهات الذين يشهدون فى القسوة على أطفالهم ويوقعون بهم الأذى وكذلك التأكيد على أهمية فحص نوعية رابطة التعلق الوجدانى بين الطفل والقائم برعايته إلى محاولة الوقوف على الخصائص النفسية والاجتماعية المميزة لمثل هؤلاء الأشخاص مع التسليم أيضا بأن تعرض الطفل للإساءة من قبل زويه لابد وأن يترتب عليه حدوث أضرار نفسية بالغة .

من الذين يسيئون معاملة أطفالهم ؟

تبرز مؤلفتا الكتاب الصفات والخصائص التى يتسم بها الآباء والأمهات ممن يسيئون إلى أطفالهم وفقا لما أظهرته نتائج عدة دراسات جيدة . فهؤلاء قل أن يتيحوا لأطفالهم بيئة انفعالية مواتية تدفع بالنمو السليم . وأهم ما يميز مثل هؤلاء الآباء أو الأمهات هو مبالغتهم فيما يتوقعونه من أطفالهم بما لا يتناسب ومرحلة نموهم . وقد كانت التوقعات غير الواقعية علامة تميز مثل هؤلاء حيث يصبح فى نظرهم مجرد كسر الطفل للعبته ، أو اتساخ ملابسه أثناء اللعب سلوك شقى متعمد من قبل الطفل . كذلك يتمسك مثل هؤلاء الآباء بمجموعة من القواعد الثابتة غير المرنة التى على الطفل أن ينفذها كما هى بغض النظر عن حاجاته أو قدراته أو

امكاناته أو عمره الزمني . ومثل هؤلاء الآباء أيضا غالبا ما تكون ضوابطهم وأساليبهم في التهذيب والعقاب غير متسقة بحيث يصبح من العسير على الطفل أن يفهم العقوبات الشديدة المفاجئة التي تقع عليه . ويذكر الكتاب تلخيصا لأهم خصائص الآباء المسيئين لأطفالهم وفقا لما جاء في عرض التراث المتعلق بموضوع الاساءة للأطفال (Spinetta & Rigter 1980) كما يلي :

— إن التاريخ النفسى لمثل هؤلاء الآباء يشير إلى خبرات من الحرمان أو القسوة والاساءة الوالدية .
— أن مثل هؤلاء الآباء لديهم أفكارا ومعتقدات خاطئة حول دورهم كأباء أو أمهات وحول كيفية تربيتهم لأطفالهم .
— أن مثل هؤلاء الآباء يعانون من ضعف في البناء النفسى يتيح للحفزات العدوانية أن تعبر عن نفسها بلا ضوابط تذكر .

— أن العوامل الاجتماعية — الاقتصادية تضيق عبئا من الضغوط النفسية على مثل هؤلاء الآباء وإن كانت هذه الضغوط النفسية في حد ذاتها ليست كافية لوقوع سوء المعاملة والإساءة للأطفال .

وقد توصل كيمب وكيمب (Kempe & Kempe, 1978) إلى نفس النتائج السابقة غير أنهما يضيفان على ما سبق من خصائص للآباء المسيئة لأطفالها نقطة هامة تميزهم وهي أنهم يرون طفلهم مخيب للآمال لا يستثير المحبة والعطف . ولعل ذلك يفسر لنا لماذا يخص الوالدان أو أحدهما طفل معين دون أطفاله الآخرين بالأذى وسوء المعاملة كما قد يفسر أيضا لماذا تتراوح درجة الأذى الواقع على أطفال أسرة واحدة من طفل لآخر . ورغم أن الدراسين لا يمكنهم القطع بأن الطفل الذى عومل بقسوة من قبل القائمين بالرعاية يصبح فيما بعد والدا (أو والده) يسعى معاملة أطفاله ، إلا أن هناك من الأدلة العلمية ما يشير إلى أن الآباء المسيئة لأطفالها كانوا في طفولتهم ضحايا للحرمان والاساءة الوالدية . ويبدو أن طبيعة خبرات الطفولة الخاصة بالوالدين تحدد فيما بعد قدرتهم على الاختيار بين أنماط الوالدية ويبدو أيضا — وفقا لما تذكره مؤلفتا الكتاب عن كيمب

وكيمب — أن الآباء الذين يستيرون معاملة أطفالهم تعيد نمطا للوالدية سبق وأن تعرضوا له في الطفولة وهو ما يطلق عليه بعض الباحثين دورة الحرمان المتعاقبة بين الأجيال .

الخصائص النفسية للأطفال التي تتعرض للإساءة من قبل القائمين بالرعاية :

يتناول الكتاب أيضا الخصائص النفسية للأطفال الذين سبق لهم التعرض للأذى والاساءة الوالدية والتي يتكرر ظهورها في نتائج الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع :

- نقص القابلية للاستمتاع بالحياة .
- بعض الأعراض السيكاترية مثل التبول اللاإرادية ، وثورات الغضب ، وعدم الاستقرار وزيادة الحركة .
- انخفاض تقدير الذات .
- ظهور مشكلات تتعلق بالتعلم المدرسى والاكاديمى .
- الانسحاب .
- العناد والتمرد .
- زيادة الترقب .
- السلوك القهرى .
- السلوك الناضج الخادع (ليس عن نضج حقيقى) .

هذا مع ملاحظة أن الجو النفسى الذى ينشأ فيه الطفل، والبيئة التى غالبا ما تنطوى على أشكال من الرفض والاهمال وتغيير القائمين بالرعاية من الأرجح أن يكون وقعها على الطفل أقوى بكثير من مجرد وقائع الأذى البدنى أو أى شكل من أشكال الاساءة .

ويلاحظ بعض الدراسين أنه ليس هناك (بروقيل) واحد لشخصية الطفل الذى اسيئت معاملته ، ففي بعض الأحيان تكون المسيرة والرغبة الشديدة في ارضاء الآخرين ، وفي أحيان أخرى تظهر على الطفل أعراض شيطانية demon symptoms بحيث يكون الطفل صعب المراس ، عنيدا ، لا يعبأ أو يتأثر بأى علامة من علامات الغضب أو الاستهجان من قبل الآخرين ، كثير الحركة غير مستقر في مكان ، عدوانى لا يستطيع اللعب مع أقرانه لمدة طويلة دون

النظر الطبية البحتة والتي تؤكد على حدوث إصابة جسمية مع فحص طبيعة الإصابة ومدى شدتها ومدى أزمان المشكلة أو حدوثها . وهناك وجهة النظر القانونية التي تركز على السماح بالتدخل في حياة أسرة ما إذا توافرت أدلة واضحة تؤيد خروج حياة هذه الأسرة ومعاملة القائمين على رعاية الأطفال بها عن المعايير المقبولة والمعترف بها ، وهنا تتعرض هذه الأسرة إلى درجات متنوعة من وسائل الإكراه القانونية . أما التعريف النفسي الاجتماعي فيركز على تقييم الأساليب الوالدية وفقاً لمفاهيم ما هو مقبول وما هو غير مقبول في مجال الوالدية . أما التعريفات بهدف البحث العلمي والدراسة فقد تشمل كل ما سبق من تعريفات بهدف دراسة هذه الظاهرة واعداد البرامج بهدف الوقاية أو التحكم ، وتؤكد مؤلفتا الكتاب على ضرورة وجود تعريف يمكننا من حماية الأطفال من التطرف السيئ لمعاملة آباءهم لهم والذي لا ينبغي أن يكون قاصراً على حدوث إصابة غير عفوية بالطفل وإنما يأخذ في الاعتبار مدى ما يتعرض له الطفل أيضاً من إهمال أو رفض أو أساءة انفعالية . « فنحن بحاجة إلى التعرف على أنماط معينة من الخبرات السيئة وأشكال التعبير الانفعالي تميز بعض الأسر عن غيرها مؤدية إلى وقوع الأذى والضرر بأفرادها » فهناك الحاجة إلى أن يشمل تعريف الإساءة للأطفال مدى أوسع من الإصابات وأشكال الإهمال وذلك لكي يمكن للدارسين استخلاص نتائج تنطبق على مجموعة عريضة من الأطفال الذين يتعرضون للإساءة وسوء المعاملة (صفحة ١٦) .

العقاب البدني والإساءة والإصابات الجسمية :

تقع الإساءة للأطفال في سياق مجتمع يقبل العقاب البدني كوسيلة للضبط وهناك اتجاه يتبناه بعض الدارسين يرى أن الإساءة الوالدية المتمثلة في أحداث إصابات جسمية بالطفل وإنما يسهل حدوثها ويتكرر إذا ما كان هناك قبول لفكرة استخدام القوة الجسمية بهدف الضبط وبالتالي فإن كل الأطفال — وبصفة خاصة هؤلاء الذين يتعرضون لأنظمة تهذيب تنطوي على العقاب البدني — يقعون في خطر

أن يقوم بضربهم أو سبهم أو إيذاءهم بشكل أو آخر . وقد كان المعتقد لوقت طويل أن مثل هؤلاء الأطفال يعانون من كثرة الحركة والاندفاعية نتيجة خلل في الجهاز العصبي ، غير أن بعض الدارسين يفسرون هذا السلوك على أنه عرض واضح للقلق ، كما أن العدوان يصبح بالنسبة لهؤلاء الأطفال المنفذ والمخرج الوحيد ، فكل ما تعلموه هو أساليب سلبية لمواجهة الموقف الذي يجدون أنفسهم فيه كذلك قد يبدأ هؤلاء الأطفال سلوكاً ناصحاً خادعاً Pseudomature يتنازلون به عن حقهم في الاحساس كأطفال والتصرف كأطفال في سبيل إرضاء الوالدين أو أحدهما . ومثل هذا السلوك — برغم ما يوحى به من نصح — يهدف إلى تجنب أذى القائم بالرعاية ويؤدي إلى أن يفقد الطفل الكثير في مجالات اللعب والمهارات الاجتماعية كما تقل رغبته في استطلاع بيئته وينخفض تقديره لذاته إذ يرى نفسه غيباً أو شقياً غير جدير بالحب كما يقل شعوره بالكفاية في مواجهة أمور أو مهام أو مواقف تقع في إطار قدراته ، ويفسر الدارسون (يذكروهم الكتاب) ذلك بأنه استجابة تكيفية لظروف سيئة ، إذ يشعر الطفل بأنه أكثر أماناً حين لا يحاول القيام بشيء أو أمر ما عنه لو أنه حاول ثم فشل مما يعرضه للعقاب الشديد .

وأياً ما كان من أنماط السلوك السابقة يتخذها الطفل فليس هناك من بينها ما يسهل عملية التعلم أو التعبير اللفظي عن المشاعر أو الأهداف والمقاصد ، لذا فليس من المستغرب أن يكون هناك من الأدلة العلمية ما يؤكد التأخر اللغوي للأطفال الذين تعرضوا للإساءة وبصفة خاصة فيما يتعلق بطرق التعبير اللفظي إذ تستخدم اللغة لا كوسيلة للتعبير عن الأفكار والمقاصد والنوايا والمشاعر وإنما كوسيلة لتحاكي العقاب (Blager & Matlin, 1976)

الإساءة للأطفال ومشكلة التعريف :

تبرز المؤلفتان قصور التعريفات المستخدمة للإساءة للأطفال والتي تختلف وفقاً لاختلاف البؤرة التي يركز عليها عدد من التخصصات عند تعريف المشكلة . فهناك وجهة

الحب ، الضبط ، العقاب :

تبرز المؤلفتان البيانات التي حصلت عليهما من المقابلات التي تمت مع أمهات لأطفال أسيئت معاملتهم وذلك فيما يتعلق بما يبدينه من محبة وقبول تجاه أطفالهن وكذلك الضوابط اللائي يفرضنها عليهم وأساليب العقاب وتبدو أن مثل هذه الأمهات لا تدري أو تدرك تماما ما لسلوكهن في المواقف اليومية العادية من أثر على أطفالهن . كذلك فنادرأ ما يضعن مشاعر الطفل أو أهدافه في اعتبارهن ، مركزين الاهتمام على كيفية ضبط سلوك الأطفال وكيفية تهيئهم مع الميل لتفضيل استخدام العقاب البدني بدلا من محاولة التفاهم مع الطفل . وجميع أمهات عينة البحث بلا استثناء ذكرن استخدامهن للضرب كوسيلة لتهديب أو ضبط الطفل وجميعهن أيضا اكدن الاعتقاد بأن الضرب وسيلة غير فعالة ! كذلك ذكرت بعض الأمهات أنهن يجدن من الصعب التحكم في أنفسهن عند قيامهن بعقاب أطفالهن ، كذلك هناك من الأمهات من كنَّ غير متسقات في استخدامهن للعقاب ، الامر الذي لابد وأن يكون (مربكا) بالنسبة للطفل فيما يتعلق بما يعاقب عليه وما لا يعاقب عليه ، كذلك أقرت نسبة كبيرة من الأمهات استخدام اشكال من العقاب الانفعالي وذلك بتهديد الطفل بالتوقف عن حبه أو رعايته أو ابعاده أو التخلص منه بشكل أو باخر .

أما فيما يتعلق بالمشاعر الإيجابية تجاه الطفل ومدى استمتاع الأم بطفلها وتقديرها لحاجاته وفرديته فان كثيرا من الأمهات اللائي يسئن لأطفالهن كن يركزن على صفات الطفل السلبية اكثر من ذكرهن لصفاته الايجابية ، كما كان كثيرات منهن غير مكترثات بما إذا كان لطفلهن خصائص متفردة أو صفات ايجابية ، بينما عجزت بعض الأمهات عن ذكر أى أمثلة ايجابية لعلاقتهن بأطفالهن .

أما فيما يتعلق بإستراتيجيات العقاب والضبط فمن الضروري عند فحص هذه الاستراتيجيات ان نكون على وعى بالهدف من تهذيب الأطفال وأساليب النظام المتبعة . فكل لآباء والأمهات يودون أن يتعلم أطفالهم ألوان السلوك

التعرض للإساءة وسوء المعاملة وقسوتها ومن هنا فبدلا من البحث عن مدى باثولوجية الوالد (أو الوالدة) الذى يسيء لأطفاله فإنه يكون من الأجدر أن نعتبر الاساءة الوالديه للطفل نقطة التطرف في متصل لأساليب التهذيب المتبعة ، وقد وجد أحد الدراسين (Cil, 1970) في دراسة مسحية قام بها على عدد كبير من حالات التعرض لقسوة المعاملة الوالدية أن أكثر من نصف هذه الحالات كنّت تنطوى على واقعة عقاب تجاوزت حدودها . وتختلف آراء الآباء والأمهات حول استخدام العقاب البدني كوسيلة للضبط وتتراوح ما بين تأييد الضرب من أن لآخر ، إلى استخدام الضرب بانتظام ، إلى استخدام ادوات للضرب كالحزام أو فرشاة الشعر إلى التاكيد بشدة على ضرورة استخدام الضرب كوسيلة للتهديب ، وترى المؤلفتان أن الذين يستخدمون أداة للضرب عادة ما يمكن اعتبارهم على مشرف احداث اصابات بأطفالهم بل ويمكن اعتبارهم فعلا لآباء مسيئين لأطفالهم ، وفي هذا الصدد يرى ريجلر (Zigler, 1980) أيضا أن الإساءة للأطفال تقع على متصل للوالديه طرفه الايجابي المحبة والقبول وطرفه السلبي القتل وفي منطقة الوسط بين الطرفين تقع الاساءة الوالدية وبعض وقائع العنف الوالدى تجاه الأطفال .

ولأن الدراسة التي قام بها صلحبتا الكتاب على أطفال تعرضوا للإساءة وسوء المعاملة تشتمل أيضا أمهات الأطفال لذا استخدمنا أكثر من طريقة لجمع البيانات فكانت هناك المقابلة المقيدة وفيها أجابت الأمهات على كيفية معاملتهن برؤيتهن لأطفالهن وأساليبهن المتبعة في الضبط والعقاب ، كذلك استخدمت الملاحظة الموضوعية المنظمة للأطفال اثناء تفاعلهم مع الأمهات (حين يأتين لمركز رعاية الأسرة) أو في تفاعلهم مع أقرانهم ومع بقية المشرفين على المركز ، وتفرد المؤلفتان جزء كبيراً من فصول الكتاب لعرض مفصل لمنهج الدراسة وأطفال العينة وأمتهاتهم ثم تعرضان بالتفصيل لما أدلت به الأمهات في المقابلة وأساليبهن مع أطفالهن من حيث العقاب والضبط ومن حيث المحبة والقبول .

الاجتماعى المقبول ، لكنهم يختلفون فيما بينهم فيما يتوقعون من أطفالهم من سلوك وفي أنماط السلوك التى يقبلونها وتلك التى لا يمكنهم تحملها ، وينبغى — فى الوضع الأمثل — أن تتفق التوقعات والمطالب مع قدرات الطفل وامكانياته ومرحلة النمو التى وصل اليها . ويختلف الآباء والأمهات فيما بينهم ايضا فى نوع الضوابط والعقوبات التى يستخدمونها لتشجيع أو حفز أطفالهم للقيام بالسلوك المرغوب . فبعض الآباء والأمهات يميلون لاستخدام أسلوب اتوقراطى فيما يتعلق بالضوابط والنظام بمعنى أنهم المتحكمون ، الواضعون للقواعد وهو يتوقعون أن يطيعهم الطفل ، ومنطقهم فى ذلك هو « لأننى (الراشد) قلت ذلك : لأننى (الراشد) أرى ذلك » ومثل هؤلاء الآباء يميلون إلى استخدام العقاب البدنى .

وهناك من الآباء من يفضل التأكيد على شرح الأسباب للطفل ومناقشته كما يفسر لماذا يتوقع منه القيام بسلوك ما وكثيرا ما يثب الطفل أو يقدم له بعض التنازلات عند قيامه بالسلوك المرغوب وبالنسبة لمثل هؤلاء الآباء فإن القواعد ليست هى ما يفرضها الكبار على الصغار وانما هى ما يلتزم به كل من الكبار والصغار ولأنها تنطبق على الجميع لذا فهى قابلة للتفاوض والتغيير

ومن هنا فان الآباء والأمهات اللذين يتبعون هذه الإستراتيجيات يتيحون للطفل بعض الاستقلال الذاتى فى اتخاذ القرار كما أنهم لا يصرون بشكل ملح على ضرورة أن يطيع الطفل أوامره وانما يدركون تماما أن للطفل انشطته الخاصة ومهامه واهتماماته وهى سبب وجيه ومقبول لقوله أحيانا « لا » .

غير أن الآباء والأمهات الذين يسيئون معاملة أطفالهم كثيرا ما يميلون لاستخدام الأسلوب الاتوقراطى فى ضبط أطفالهم كما أنهم يؤيدون استخدام العقاب البدنى كوسيلة للضبط غير مدركين أن العقاب البدنى والعنف يصبح فيما بعد حلا لمشكلة وليس مشكلة فى حد ذاته . والعنف — كما تبرز صاحبنا الكتاب — غير مرغوب لكنه يحدث وبصفة خاصة حين يكون الأشخاص تعساء ، متعبين أو محبطين ..

وكما أوضحت الأمهات فى هذه الدراسة فان العقاب البدنى قل أن يكون له تأثير على السلوك الذى ترغب الأمهات فى تغييره ، بمعنى « إذا كان هناك من يخالف فى رأى ، أو إذا كان لا يفهم ما تود ايضاحه له ، فليس هناك أدنى احتمال لأن تجعله يفهم ما تود ايضاحه أو أن يوافقك فى رأيك إذا ما قمت بضربة وانما من الأرجح أن يجعله الضرب مضطربا بحيث لا يمكنه أن يفكر فيما قلته له أو طلبته منه » (صفحة ١٩٧) ، وعلى كل فإن ذلك هو ما يتبعه بعض الآباء مع أطفالهم .

وفى نهاية هذا الفصل يبرز الكتاب للآباء والأمهات ولكل من يعمل مع الأطفال أو ذويهم أو يقدم شكلا من أشكال العون بجميع مستوياته أربعة نقاط رئيسة تتعلق بما يفرض على الأطفال من ضوابط :

— قرر ووضح ما القواعد المرغوب اتباعها على أن تكون متناسبة مع عمر الطفل ومرحلة نموه وعلى أن تكون بسيطة بقدر الامكان .

— كن متسقاً ، أى لا تعطى رسائل مختلطة فيما يتعلق بالقواعد ، فالأمهات المسيئات لمعاملة أطفالهن كثيرا ما كن يطبقن القاعدة بشدة فى مرة لكنهن كن يضحكن سرات أخرى على « شقاوة أطفالهن » ، وحيث يكون الوالدان معا فينبغى أن يتمسك كل منهما بنفس القواعد ، وبنفس درجة الاتساق .

— امتداح الطفل على قيامه بسلوك طيب ، فكثيراً من الأسر التى يظهرون فيها مختلف أنواع السلوك المشكل ومشكلات السلوك هى أسر لا يحصل الطفل فيها على الاهتمام ولا يلتفت إلى أن ما يقوم به الا حين يصدر عنه سلوك غير مرغوب أو حين يقم « بشقاوة » ما بينما يتم تجاهل كل ما يقوم به من سلوك طيب .

— اشرح ما الذى تقصده « واعد الشرح وكرره — فمن الصعب على الطفل الصغير أن يتذكر القاعدة وبصفة خاصة إذا انهمك فى شئ أو كان متحمسا له . وينبغى على الوالدين أن يتوقعوا شرح وإعادة شرح ما يودون لأطفالهم اتباعه أو القيام به وذلك قبل أن يستوعب الطفل هذه القواعد

٣ - حق اللعب :

اللعب هو « عمل » الطفل ، ومنذ بداية عهده بالحياة فهو بحاجة لمن يحمله ويحادثه ويشجعه على استكشاف بيئته والتعرف عليها ، والأطفال لا يمكن أن ينموا دون وجود التنبيهات المناسبة ، والكبار والقائمين بالرعاية هم أهم مصدر لهذه التنبيهات ولا يكفى الأمر أن تعطى الطفل دمية أو لعبة ونتوقع منه أن يلعب بها ، فالطفل يمكن أن ينمو بدون اللعب والدمى لكنه لا يمكن أبداً أن ينمو بدون التفاعل مع الآخرين . وتذكر المؤلفتان هنا حالة طفل في الرابعة لم يكن يعرف اسمه لأن أمه لم تكن تتكلم معه أبداً .

ولأن الطفل له الحق أن ينمو على نحو سليم فإن ذلك يتطلب قدراً من الضوضاء والفوضى على الكبار تحملها كجزء لا يتجزأ من حقيقة أن الطفل كائن حي وليس دمية .

٤ - حق الأمان :

من حق الطفل أن يكون آمناً بمعنى أن نحمله من الأخطار الحقيقية الموجودة في البيئة والتي لا يمكنه فهمها ، وهذا الحق ينطوي على ضرورة أن يجعل الأبوان منزلهما آمناً بالنسبة للطفل كأن يحفظا المواد الكيماوية والعقاقير وغيرها بعيداً عن متناول يد الطفل مع تعليم الطفل الأخطار المحيطة به بما يتناسب مع عمره الزمني وبالطريقة المناسبة وليس بأن نلصق يديه بالنار لكي يعرف خطرها « وهو ما فعلته أحد أمهات الدراسة بطفلها » أو أن مثل هذه الطريقة يمكن أن تدخل في نطاق الإساءة وسوء المعاملة . كذلك لا ينبغي أن نتوقع أن يذكر الطفل ما حذرناه منه من مرة واحدة .

والطفل ينبغي أن يكون آمناً من أى شكل من أشكال العدوان البدني . وكل من يعمل في مجال تقديم الخدمات النفسية للأطفال يعلم تماماً أن استمرار استخدام العقاب البدني يمكن أن يتدهور سريعاً إلى أحداث إصابات بدنية بالطفل ويمكن أن يتدهور أكثر من ذلك بأن يصبح أحداث الإصابات بالطفل نتيجة للأذى البدني أمر معتاد .

« ويستدخلها » ، وإذا ما إحترم الآباء حاجات الطفل واعترفوا بذلك فالاحتمال الأرجح هو أن يصبح بإمكان الطفل أن يسلك بنفس الطريقة تجاه الوالدين .

حقوق الطفل :

في هذه الفقرة الأخيرة من الكتاب تضع المؤلفتان بكل قوة ووضوح سبعة حقوق أساسية للطفل وهما من ذلك هو إبراز أن للطفل حقوقاً ينبغي الوفاء بها وكذلك وضع هذه الحقوق في سياق المشكلات التي مرت بها الأسر التي قامت بدراساتها ، والفقرة تهم كل من يعمل مع الأطفال :

١ - حق الغذاء :

فكل من يعمل مع الأطفال ينبغي أن يدرك أن الطفل ناقص الوزن الذي تبدو عليه بوادر الاعتلال هو طفل قد يكون عرضه لخطورة سوء المعاملة . فقد لا تكون تغذيته كافية بسبب الفقر أو بسبب تجاهل وإهمال الوالدين ، وقد يقوم القائم بالرعاية بحرمانه من الطعام كإحدى وسائل العقاب ، أو قد يتوقع ولي الأمر أن يقوم الطفل بإطعام نفسه بنفسه في حين لا يكون ذلك في حدود قدراته ، أو أن تناول الطعام هو مصدر توتر في العلاقة بين الطفل والقائم بالرعاية .

٢ - حق العناية بنظافته ومظهره :

رغم أن المحافظة على نظافة الطفل وحسن مظهره أمر يتطلب كثيراً من الجهد ، ورغم أن الأمهات يختلفن في درجته تحمل بعض القذارة وعدم العناية بنظافة أطفالهن إلا أن هناك عدة معايير أساسية لنظافة الطفل ينبغي مطابقتها . فالطفل الذي لا يستحم ولا تغير له ملابسه الداخلية لمدة طويلة هو طفل مهمل تساء معاملته ، والرضيع الذي لا تغير له سراويله بانتظام هو رضيع لا يلقي رعاية كافية ، الأم التي ترى أن اتساخ ملابس طفلها فعل متعمد لإثارتها هي ولا شك أم بحاجة إلى العون والمساندة .

ب خبرات من هذا النوع لذا ينبغي تقديم العون لهم حتى يمكن إيقاف دورة الحرمان المتعاقبة بين الأجيال وذلك بمساعدتهم في زيادة فهمهم لنمو الطفل وتشجيعهم على الاستجابة على نحو طيب لحاجاته الانفعالية (Rutter & Madge, 1976)

ولكى يكون الطفل آمناً نفسياً ينبغي أن يشعر بأن حاجاته سيتم إشباعها وأنه لن يلقى الإهمال ، فالطفل ينبغي أن يتكون لديه الإحساس بأن هناك من يهتم لا بتقديم الطعام له أو تغيير ملابسه فحسب وإنما بمشاعره بالألم أو الخوف أو الوحدة .

٦ - حق التقدير :

الطفل بحاجة إلى الاحساس بأنه مقدر وله قيمته وأهميته ، وهو بحاجة لأن يشعر أنه محبوب مرغوب لذاته ، وهو بحاجة للتشجيع والقبول لكي ينمو نمواً سليماً . والأطفال الذين لا تصلهم إلا رسائل منطوقة أو غير منطوقة مضمونها سلبى من قبل القائمين برعايتهم سيعانون من انخفاض تقديرهم لذواتهم بل وإن يتوقعوا إلا الرفض والفشل من قبل الآخرين بل وربما تكونت لديهم انماط من المسالك التى لا تلقى إلا الرفض من قبل العالم الاجتماعى .

٧ - حق الطفل أن نتيج له أن يكون طفلاً :

الطفل مصدر سعادة وامتناع للوالدين لكنه يتطلب الكثير من الجهد والعمل الشاق فعملية تربية الأبناء أشبه بعملية مستمرة لحل المشكلات ، وكل مهمة تتلوها أخرى وكل اسبوع أو شهر أو عام يأتى بمهام جديدة يثير قضايا ينبغي حلها .

وتؤدى مواجهة الوالدين لهذه المهام بشكل طيب إلى زيادة شعورهم بالتحقيق والانجاز ، ولكن حين لا يتم مواجهة المطالب على نحو طيب يكون هناك شعور الأباء بخيبة الأمل وبالرفض وتصبح عملية التنشئة وتربية الأبناء عبأ ثقيلاً .

والطفل ينبغي أيضاً حمايته من الاعتداء الجسدى والذى يمكن أن يحدث فى إطار الأسرة بالرغم من أن ذلك كان لا يثير اهتمام المتخصصين فى تقديم الخدمات النفسية للطفل والأسر إلى عهد قريب ، فالوالدين والمتخصصين ينبغي أن يكونوا يقظين تماماً لاحتمال حدوث مثل هذه الاساءات الجنسية ، وتؤكد مؤلفتا الكتاب على أهمية وقيمة الملاحظة ، ولا ينبغي اغفال أى بادرة ذات معنى فى سلوك الطفل أو سلوك الكبير ، فالطفل ينبغي أن تتوافر له وسائل طلب العون والطفل الذى لا يمكنه أن يعبر عن خبراته بالكلام يمكن مساعدته من خلال اللعب وفنيات العلاج باللعب .

٥ - حق الأمن النفسى :

ينبغي للطفل أن يكون آمناً من الخوف من العنف ، أو الاعتداء الجسدى ، أو أى شكل من أشكال العدوان عليه من قبل عائلته الاجتماعى . فالطفل الذى يعيش فى حالة خوف أو ترقب لما قد يقع عليه من عدوان لن يكون تلقائياً أو حراً فى استشكاف عائلته ، وبالتالي تعوق إمكاناته للتعلم وفرص نموه . فالطفل غير الأمن هو طفل قلق مضطرب تظهر عليه كثير من الاعراض والسلوكيات المضطربة والتى قد يكون لبعضها قيمة تكيفية — كالتوجس والترقب — فى بيت يتعرض فيه الطفل للعنف وأشكال الأذى لكنها فى النهاية تعوق نمو الطفل السليم ، وهكذا قد يصبح الطفل فى النهاية حبيس اشكال من السلوك السلبى يقوم بها وبشكل متكرر لكى يجذب الانتباه والاهتمام .

ولكى يكون هناك آمناً نفسياً للطفل ينبغي ألا يقع فريسة لأشكال الإساءة النفسية والانفعالية من رفض وتهديد بسحب الحب وإغاضه وتهديد بالإبعاد أو التخلص منه ، ومعايرته بعيوب ومقارنته بأقران . فإذا تكرر تجاهل ألم الطفل ومعاناته ، وإذا تكرر مضايقته وتهديده فإن ذلك سيؤدى بأمنه النفسى ورغم أننا لن نلاحظ عليه اصابات جسمية ظاهرة إلا أن الاصابة النفسية ستحدث وبشكل شديد . ويبدو أن بعض الأباء والأمهات قد مروا فى طفولتهم

واقعية ، وتكون الطامة الكبرى حين يظن الوالدان أو أحدهما أن مجيء الطفل قد تدخل في حياته وأحدث بها تغيرات لا يرضاها وهنا يصبح الطفل ملوما على ما لم يفعله . كل ذلك لا شك يتدخل في حاجة الطفل لأن يكون طفلا ولأن ينمونوا سليما وأن يكون له كيانه المتفرد المقبول في إطار إمكاناته وقدراته كطفل ينمو لا كراشد قد اكتمل نضجه ..

وكثير من الآباء ينقصهم النضج والمعرفة بنمو الطفل بشكل يجعلهم غير مهينين لمهام الوالدين وغير معدين لها ومن هنا فقد يفسر بعضهم سلوك الطفل على أنه محاولة لاغاثتهم أو اثارته ، أو أن هذا الطفل شيطان شقى . كذلك يكون لدى البعض توقعات مبالغ فيها تجاه أطفالهم بحيث لا يمكنهم قبول سلوكهم في إطار ما لديهم من قدرات وإنما يقيمون هذا السلوك وفقا لما لديهم من توقعات مبالغ فيها غير

من مراجع الكتاب :

- **Bleger F. & Martin, H. P. (1976)** Speech and language of abused children, In the Abused child ed. H. P. Mantin - Cambridge: Mass; Ballinger.
- **Bowlby, J. (1953):** Child care and the growth of love Hamondsworth: Pengiun.
- **GB, D. (1970):** Violence against children. Cambridge: Mass; Harvard University Press.
- **Kempe. C. H. (1979):** Recent developments in the field of child abuse. Child abuse & Neglect, 3, ix - xv.
- **Kemp, R. S. & Kempe C. H. (1976)** Cycles of deprivation, London: Heinemann
- **Rutter, M. & Madge, M. &. (1976)** Cycles of deprivation, London: Heinemann.
- **Spinetta, J. J. & Rigler, D. (1980)** The child abusing parent: A psychological review. In Traumatic Abuse & Neglect of Children at Home, ed. G. J. Williams & J. Money. Baltimore & London: John Hopkins University Press.
- **Zigler, E. (1980):** Controlling child abuse do we have the Knowledge and/ or the will? In child Abuse: An agenda for action, ed. G. Grebner, C. Ross & E. Zigler, Oxford University Press.

